المقدمات النظرية

لصياغة أنموذج منظوري إرشادي إسلامي عام في الفقه والعلوم

(1) صناعة الفقه: كيف نشأت جدلية النصوص الأولى

تمهيد

إن أيّة نظرة بازية من علياء الأفاق لمحاولة تتبع مجرى نهر التاريخ المعرفي الإسلامي الكبير بكل روافده وجداوله وزخم تدفقاته، منذ أن نزلت سورة التأسيس الأولى: "العلق" الآمِرة بفرض القراءة الإلزامية على النبي الأمي أمية فطرية وعلى أمته الأمية أمية اغترابية في قوله تعالى:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ العلق: ١

تتنزل بحسب ما يفهم من الأمية بالمعاني الثلاثة الاتية:

1) العامي {"عمو" بالآرامية} بمعنى العربي أو الأسيوي. وبه عرفت العرب البدو الرحل قديماً من قبل المصريين ويطلقون هذا الاسم على الأسيويين عامة ومن بينهم "الهكسوس" الذين حكموا مصر زمن يوسف عليه السلام، كما ورد في كتابة جدارية للملكة الفرعونة: "حتشبسوت" (الصورة والمومياء)[1]

على جدار معبد يعرف ب "مغارة أرطيميس" في مصر الوسطى قرب بني حسن الحاليين، الذين يطلقون عليها

[1] توفيت عام 1455 ق.م. ولم يعثر على مومياءها سوى مؤخراً، حيث أعلنت مصر يوم 27 يونيو 2007 التعرف على مومياءها. وكانت تعتبر واحدة من بين ست ملكات حكمن مصر عبر تاريخها القديم.

"إسـطبل عنتـر"(الـصورة) يقـول نـص حتشبسوت:

وقد أعدتُ بناء ما خرب، ورَفعتُ ما لم يكتمل منذ كان الأسيويون "عمو" يقيمون في وسط أفاريس Avaris" بالشمال (الدلتا)...

2) الأممي من غير اليهود بالمعنى العبري: {جويم (גויים جمع جـوي (גוי)} وهو المعنى الوارد في سفر التكوين (10: 5):

{من هؤلاء تفرقت جزائر "الأمم" بأراضيهم كل إنسان كلسانه حسب قبائلهم ب "أممهم"}

وقد جاء استعماله تنصيصاً على ذرية إبراهيم من خلال ابنه إسماعيل عليهما السلام ، كما في سفر التكوين (12: 1 - 2):

12: 1 و قال الرب لإبرام اذهب من أرضك و من عشيرتك و من بيت أبيك إلى الأرض التي اريك

12: 2 فأجعلك "امة عظيمة" و أباركك و أعظم اسمك و تكون بركة

والأمة العظيمة من نسل إبراهيم عليه السلام هي من خلال عقب ابنه إسماعيل عليه السلام المرتبط ارتباطاً وثيقاً بعرب الجزيرة العربية وبرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الأخير ينحدر من صلبه.

وهو نفس المعنى الوارد في سفر الخروج (19: 5) في مخاطبة الله لبني إسرائيل في جبل الطور:

فالآن إن سمعتم لصوتي و حفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع "الأمم" فان لي كل الأرض,

وهو المعنى المقصود في الآية 157 من سورة الأعراف:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٧

وهو الموعود به صلى الله عليه وسلم في سفر التثنية (18: 18) الذي نورده هنا مع ترجمته الخاطئة المتداولة بين اليهود والنصارى سواء على تباين في ترجمتها فيما بينهم بحسب هوى كل فريق:

{18} נָבִיא {نبيا} אָקִים {أقيم} לָהֶם {لهم} מִקֶּרֶב {مِقْرَبْ} אֲחֵיהֶם[8] {أَخِيْهِمْ}, כָּמוֹךָ {كَموك[9]}; וְנָתַתִּי דְבָרַי, בְּפִיו, וְדִבֶּר אֲלֵיהֶם, אֵת כָּל-אֲשֶׁר אֲצַוֶּנּוּ.

{18} أُقِيمُ لهُمْ نَبِيّاً مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ[10] مِثْلَكَ[11] وَأَجْعَلُ كَلامِي فِي فَمِهِ فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ[12].

قلت:

مِقْرَبْ {مِقَرِب} אֲחֵיהֶם {أَخِيْهِمْ} : تعني قطعاً: "إخوانهم الأقربين" أي: "إخوانكم الأدنين في النسب إليهم من غير صلبهم".

وبالتالي فالمعنى المقصود لكون اللغة العربية مشاركة للعبرية في كثير من تعابيرها وأساليبها، ولكون اللغة العربية حية ومحتفظة بأصولها وقواعدها فهي تظل مهيمنة على

اللغات السامية لاندثار الأخيرة وموتها، حتى أن اليهود المعاصرين يلجئون إليها لنقحرة مفردات جديدة في العبرية، ولا يستغني عنها متخصص في أسفار العهد القديم ليفهم نصه العبري، هو:

أقيم لهم نبيا من إخوتهم الأقربين مثلك و اجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به.

وهي العبارة المقصودة، كما ورد نظيرها في القرآن الكريم:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ الشعراء: ٢١٤

التي ما كان لأي مترجم يهودي أو مسيحي أو غيرهما، من غير الملمين بأساليب اللغة العربية، وبأساليب القرآن خاصة الوقوف عليها بحال!

ويوضح اللوح التالي شجرة القرابة الأخوية المقصودة.

وانظر لمزيد: التحقيق العلمي لهذا القول لتتيقن بنفسك من تحريف اليهود والنصارى للنص المتداول بين أيدي الناس في مقالاتنا الثلاثة في "التأويل" (العناوين المصاحبة التالية) في (قسم المقالات) على موقعنا، مثبتين بما لا يدع مجالاً للشك بكون نبي الإسلام: محمد صلى الله عليه وسلم هو ذلك النبي الموعود.

3) **والأمي بالمعنى الفطري كيوم ولدته أمه: الذي لا يكتب ولا يقرأ، وهذا خاص برسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وحده، كما جاء وصفه عليه السلام في القرآن الكريم، وقرأ الوصف صحابته ورددوه وهو حي يعيش بين ظهرانهم:**

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ العنكبوت: ٤٨

قلت:

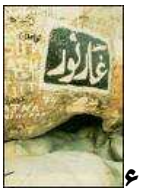

وقد نزلت سورة "إقرأ" على الرسول الأكرم ﷺ أثناء تحنثه بغار حراء

، على مشارف مدينة مكة وقد بلغ أشُدَّه.

وقد استتبع ذلك زخم إيماني كبير سيمكنه صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفي ظرف وجيز، من تحويل النّص المقروء، من حرف مسطور متلو ومحفوظ، إلى فعل حضاري مُثوِّر ومقولب للوجود، إلى أن اكتمل "الأنموذج المنظوري الإرشادي المؤسساتي العام" لدولة الإسلام المختتم بنزول آية اكتمال الدين وتمام النعمة واستحقاق الرضى في قوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾ ﴾ المائدة: ٣[2]

[2] سورة المائدة، الآية 3 .

النازلة بجبل عرفات في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة.

والملفت هو أن كل من وقف على هذه السيرة في تفاصيلها، لا يمكن سوى أن يُصاب بالذهول والإعجاب من عدة وجوه:

الذهول أولاً: لِقصر مُدَّة هذه الحقبة الزمنية لإحداث مثل ذلك الانقلاب وذلك التحول وبذلك الشمول والحجم، سواء في العادات، أو في التقاليد الموروثة أو في المعتقدات أو في التصورات أو في السلوكيات..،ثم

الإعجاب والإكبار ثانياً: لكون هذا حصل فعلاً !، وحصل في التاريخ، وليس في عالم الافتراض أو الخيال أو أضغاث أحلام المنظرين السياسيين أو الفلاسفة الطوباويين، حتى أن مؤرخاً من حجم الإنجليزي إدوارد غيبون (Edward Gibbon) (1737 - 1794 م) لم يسعه، وهو يؤرخ لسقوط الحضارة الرومانية بكتابه المعلمة: "**تاريخ اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية**" (*The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*)[3]، سوى بأن يصف حَدث بزوغ الإسلام وإشراقه على ساحة الوجود، وانبثاق رسالته التدافعية المُحَضِّرة في القرن السابع الهجري في كتابه هذا سوى ب " الإعصار" أو "الزوبعة الحضارية".

وللمرء أن يقلب السؤال على غيبون بدوره ويسأله:

- أيُّ إعصار؟
- وأيّ زوبعة أو دوّامة أو زلزال؟

---

[3] أصدره لأول مرة بين سني 1776 - 1788م)

- وبأي معيار وبأي منظور؟.

وقد يختلف المؤرخ، وعالم الاجتماع، وعالم السياسة، وعالم اللغة، كل من منطلق تخصصه الخاص، مع غيبون، سواء في التشخيص، أو في التحليل، أو في الدّلالة والتعبير. لكنّا هنا، لن نسايرهم، وإنما سنلتمس له العذر، مُنصفين ومُتسامحين، وذلك لاعتبارين:

أولهما: لكونه يعتبر بحق وإلى عصره، أول مؤرخ أوروبي تطرق لدراسة صيرورة الحضارات الأممية وأدرج عالم الإسلام ضمنها!،

وثانيهما: أنه أيضاً، أول من حاول، ومن منظور أوروبي، أن ينظر إلى الإسلام بنظرة أكثر موضوعية أو إنصافاً!، ضمن السياق الحضاري العام للبشرية، بحسب المصادر التي كانت قد توفرت له عن الإسلام يومها من طريق المستشرقين، الذين قلما اتصفوا بالإنصاف أنفسهم، وأن يخرج قدر الإمكان، وبما يسمح له ظرفه، من قفص الرؤية الموروثة في صناعة الصور، التي تم ترسيخها عن الإسلام والمسلمين من طرف الكنيسة،[4] إلى درجة أن أفلحت عملياً في صد الأوروبيين جملة عن اكتشافه وإلى اليوم، أو الوقوف على منابع النور، أو الحق، أو الهداية، أو المعرفة فيه، خارج ما لفقت وحكت لهم عن الإسلام والمسلمين، وسجنتهم بداخله كقفص عقائدي حديدي لا يخترق، خشية أن يكتشفوا فيه يوماً ما، ما حاولت جاهدة، أن تخفي عنهم منه، لدهور وينفلتوا من عقالها.

إلا أن ما حدث، وبكل المقاييس، كان فعلاً، أكثر من إعصار وأعتى من زوبعة، بل ومن ألف ألف منظور، وألف ألف اعتبار، وألف ألف وجهة نظر، وألف ألف مِحَكّ.

ذلك أن المسلمين ، لم تنتجهم قوانين الطبيعة، ولا أنهم من صنع التاريخ على ما اعتادت باقي الأمم في التداول الحضاري، وإنما خلقهم الوحي.

---

[4] أنظر بهذا الصدد كتاب المؤرخ الإنجليزي ر. و. سذرن في: "نظرات غربية للإسلام في القرون الوسطى) في:
Souther, R. W. ,1962: "Western Views of Islam in the Middle Age", Cambridge University Press
وكتاب إدوارد سعيد: "الاستشراق"، نشر "مؤسسة الأبحاث العربية، ط. أولى 1981.

إذ لولا تدخل وحي السماء، لظل جيل ذلك الرعيل الأول، الذي سيقلب الوجود رأساً على عقب، ويحدث ذلك الإعصار الزوبعة، قابعاً في تيه صحرائه ورماله، نكرة مهملة في الوجود والحضارة.

لكن، وعلى امتداد أزيد من عقدين، وهم في طور النشأة والتكوين، ظل الوحي المربي والمُقوْلب لأنماط الحياة، يتنزل منجماً: جملاً وجملاً تارة، وآيات ذوات عدد تارة أخرى.

وكان منه ما كان يتقدم في النزول، ومنه ما كان يتأخر، ناسخاً لما تقدم. وكان والرسول ﷺ المُبَيَن عن رب العالمين يُبَيَن مُجمله ومشتركه، ويفسر مبهمه وخفيه، ويشرح مغلقه ومتشابهه، ويفصل فرائضه، ويميز ناسخه من منسوخه، والصحابة يسجلون في ذاكرتهم أين نزلت الآيات وفيما نزلت؟ وفيمن ؟ ولأي سبب؟.

وهكذا استمر نزول الوحي تترا في أحايين، أو على فتَرة وتريُّث في أحايين أخرى، مؤسساً ومؤصلاً لقواعد الإيمان، والتوحيد، والعبادات، والمعاملات، والسلوك، والدولة، والسياسة القضائية، والسياسة الشرعية، .ثم مربياً ومؤطراً للمجتمع في كل مجالات الحياة، بحسب النوازل والوقائع والأحداث في جدل مفتوح بين السماء والأرض لا يصده صاد، ولا يحول دونه حائل، ولا يعترض مساره معترض، ذهاباً وإياباً، بين رحمة الراسل وأمانة الرسول ذي القوة المتين وصدق المُرسَل الأمين واحتياجات المرسَل إليهم.

وقد أثيرت أسئلة وتنزّلت بها أجوبة بقدرها،

- **فمن سائل عن " الأهلة"،**
- **ومن سائل عن " الروح"،**
- **ومن سائل عن " النفقة"،**
- **ومن سائل عن "القتال في الشهر الحرام"،**
- **ومن سائل عن " ذي القرنين"،**

- ومن سائل عن " مآل الجبال"،
- ومن سائل عن " قيام الساعة"،
- ومن سائل عن "اليتامى"،
- ومن سائل عن " المحيض"،
- ومن سائل عن " الأنفال"،
- ومن سائل عن " الحلال"،
- ومن سائل عن " الخمر والميسر"،
- ومن سائل عن "طهارة ماء البحر"،
- ومن مستفت عن " الكلالة"..إلخ.

والقرآن يجيب والرسول ﷺ يبلغ ويبين ويشرح ويفصل مؤدياً للرسالة وللأمانة كلها غير منقوصة ولا مبتسرة كما أمِر في قوله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ المائدة: ٦٧ [5]

وقد بلَغ من تَمَثُّله ﷺ للقرآن وتماهيه فيه، وتخلقه بأوامره ونواهيه ومقاصده ومراميه، أن التبس وتقمص به بكل روحه، بكل وجدانه وبكل مشاعره حتى قال تعالى في حقه:

[5] سورة المائدة، الآية 67 .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ القلم: ٤

فكان هو ﷺ التجسيد الحي للأسوة الفردية اليقينية الموجبة للثواب أو العقاب في الحياة الدّنيا وفي الحياة الآخرة، لا يُقاس بغيره ولا يماثل بمعزل عن نفسه مع أيٍّ كان، سوى على من جهل بمقامه أو أصابته لوثة أو خلل في عقله، ممن رُفِع عنه التكليف جُملة: إما لجنونه أو لأيّ عامل آخر!.

فهو القدوة المُشَخّصَة، التي لا يُقدّم بين يديها أحد، والمنارة التي يُشار إليها ولا تُحجَب، والمعلمة المعيار للتمَثل والتّخَلُّق حذو القذة بالقذة ، ثم هو النموذج البشري في كل ما له تعلق بشؤون البشر من أمور الحياة كلها بالنسبة لأصحابه أو لمن يأتون بعدهم، جيلاً بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم هو، بموازاة ذلك كله، مثل في المطلق، السفير الأمين المُبلغ عن رب العالمين بالقول، وبالفعل، وبالسلوك، وبالتقرير، وبالتفسير، وبالفتوى، وبالقضاء، وبالحكم...إلخ.

وكان الصحابة رضوان الله تعالى عنهم مدركين لمقاماته هذه كلها، لا تلتبس عليهم، يأخذون عنه ذلك كله، ويعملون به في كل منزع من منازع الحياة وأسبابها، ما يُغنيهم عن مساءلة غيره، سواء أكانوا في حال مَنْشط أو في حال مَكْرَه.

وظلوا ينهلون من علم السماء المنزّل عليه وحياً إليهم، مترجماً بوقائع الأرض، على مقاسهم ومقاس البشرية جمعاء، يسترشدون بنوره، ويهتدون بهديه ويفهمون عنه قصده، إما بفعله أو قوله أو إشارته أو تقريره، مُستجمعين لجوامع كَلِمِه بما طُبعوا عليه من سليقة لغة وسلامة صدور، قبل أن يصدروا عنه على محك الفعل والتطبيق، وقد هضموا منهجه كله وتأوّلوه

وتمثلوه ونزّلوه بحذافيره تطبيقاً على الواقع، لا يخطئون الهدف ولا يزيغ بهم المنهج عن الطريق السوي أو المحجة البيضاء، محولين إياه إلى فعل حضاري في الوجود، على غير نموذج مسبوق، أو مثل يُحتدى أو نمط يُقلّد، حتى صاروا بهذا الفعل المبدع الخلاق " الأنموذج" المعيار بامتياز لغيرهم في التأسّي، كي يحاكوه ويقلدوه، حسب متطلبات أزمانهم وظروفهم وبيئاتهم المختلفة.

كيف؟ وها قد نوّه بأنموذجهم وبأسوتهم سيد الوجود كله، ومن فوق سبع سموات وفي المطلق:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٠﴾ [6]

ولا أسوة في مجتمع، من حيث الفهم والتنزيل، غير هذا المجتمع الأول " الأنموذج" ، "المُخرَج"، "الطفرة "، "المعجزة"، الذي ربّاه الرسول ﷺ على يده بعد أن ألقى عليه الله جل جلاله محبّة منه، وصَنعَه على عينه، قبل أن يُخرجه إلى الوجود خير إخراج: رحمة للعالمين.

إنتهى

ويليه الجزء الثاني

طور التأسيس المرجعي وملحمة النصوص

[6] سورة آل عمران، الآية 110 .